المشرق

الغفران وحقيقة معناه في الكنيسة

نظر لاهوتي تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

في يوم عيد ميلاد الرب من هذا الشهر سيفتتح قداسة الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر السنة اليوبيليّة الكبرى في رومية بكل رونق وجلال فيبيح كنوز النعم الرسوليّة على الوفود المتقاطرة الى امّ المدائن لزيارة كنائسها الكبرى وإكرام ضريح هامة الرسل القديس بطرس ومشهد رفيقه الانا. المصطفى القديس بولس فيربحون الغفران اليوبيلي ويتزوّدون ببركة امام الاحبار

فبهذه الفرصة طلب الينا غير واحد من القرّاء ان نكتب لهم في المجلة فصلاً واضحاً في الغفران وحقيقة معناه في الكنيسة لعلّنا نزيل به ما غلب على عقول الكثيرين من الاوهام من هذا القبيل فنقول :

*

ليس امرٌ أثار على الكنيسة غضب بعض اعدائها كمسألة الغفرانات فانّهم قد اتخذوها وسيلة للتشنيع على الاحبار الرومانيّين ورؤساء الكثلكة فنسبوا اليهم اختراعها زوراً لأغراض سافلة ومطامع دنيّة لا مسوّغ لوجودها على قولهم لا في الاسفار المقدّسة ولا في عادات قرون الكنيسة الاولى . وزاد صخبهم منذ نشر لوتاروس زعيم البروتستانت راية العصيان محتجّاً باعلان الغفرانات في زمانه فأضحى الغفران منذ ذاك الحين هدفاً لسهام الشيع البروتستانيّة ولعلّهُ صار ايضاً حجر عثرة في سبيل بعض الكاثوليك الضعيفي الايمان . فيترتّب علينا اذن ان نبيّن في مقالنا ما هو

الغفران وما أصلهُ ومصدرهُ واسبابهُ ومفاعيلهُ ومن هو المفوَّض اليهِ منحهُ وما هي الشروط لبحهِ

١ الغفران في عرف الكنيسة

الغفران في اللغة الصَّفح والتسامُح . ومثلهُ في اللاتينيَّة ومشتقَّاتها (indulgentia) امَّا في الاصطلاح وعُرْف الكنيسة فالغفران هو التجاوز عن العقاب الذي يستحقُّهُ الانسان عن خطاياه بعد ان صُفح لهُ إثمها . وهذا التجاوز تمنحهُ السلطة الكنسيَّة من كنوز البيعة امَّا للاحياء بطريقة المسامحة وامَّا للموتى بشفاعتها الى الله

فترى من هذا التحديد الفرق بين إثم الخطيئة وعقابها . فان الإثم اي الاهانة التي صدرت من الخاطئ نحو العزَّة الالهيَّة بمخالفتهِ وصاياه لا يُمحى الَّا بالتوبة كما يُلغى ايضاً الهلاك الابدي الذي كان يلزمهُ . امَّا العقاب الزمني فهو تكفير موقَّت يجب على الخاطئ ان يؤدِّيهُ بعد توبتهِ امَّا في هذه الحياة بالاعمال الصالحة والفرائض التعويضيَّة وامَّا في الآخرة بمقاساة العذابات المطهريَّة . وللكنيسة سلطة بان تصفح عن هذا العقاب الزمني امَّا بالسماح وامَّا بالشفاعة كما سترى

٢ ما هو اصل الغفران وما مصدرهُ

لا بُدَّ لبيان ذلك من بعض المقدَّمات :

١ انَّهُ من الايمان انَّ الانسان معرَّض للخطيئة بل « ليس انسان لا يخطأ » (٣ملوك ٨ : ٤٦) و« ان قلنا ليس فينا خطيئة فانَّنا نُضلُّ انفسنا وليس الحقّ فينا » (١يوحنا١ : ٨) فحكم الخطيئة قد شمل الجميع لم يُستثنَ منهُ الَّا السيِّد المسيح ابن الله ووالدتهُ العذراء مريم بنعمةٍ خاصَّة منهُ

٢ لا يستطيع احد ان يغفر الخطيئة الَّا الله (مرقس ٢ : ٧) وانَّما الخطيئة تُغفر بالتوبة والندامة القلبيَّة لكنَّ غفران الله للخطيئة لا يُعافي الخاطئ عادةً عن تقدمة بعض الوفاء عنها في هذه الحياة او في الحياة الاخرى وذلك امَّا بما يفرضهُ الانسان اختياريًّا على نفسهِ من العقاب كالصوم والصلاة وامَّا بصبرهِ على ما يرسلهُ لهُ الله من

الاوجاع والبلايا في حياته او بمقاساته آلام المطهر بعد مماته. ألا ترى كيف عاقب الله آدم وحوّاء بضروب المحن والمشقّات والموت بعد ان غفر خطيئتهما وكيف ضرب داود وأمات ولده حتى بعد ان أكّد له النبي ناتان «انّ الله قد نقل عنه خطيئته» (٢ ملوك ١٢: ١٣). ولنا في سفر العدد (١٤: ٢٠—٢٣) دليلٌ آخر على ذلك فهناك يُذكر عصيان بني اسرائيل على موسى النبيّ ودعاء موسى الى الله ليغفر خطيئتهم فأجابهُ الربّ: «قد صفحتُ بحسب قولك ولكن حيٌّ انا ولتمتلئنّ الارض كلُّها من مجد الربّ انّ جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي صنعتها في مصر وفي البرّية... لن يروا الأرض التي اقسمتُ عليها لآبائهم وكلّ من استهانَ بي لن يراها». فيظهر من هذا جليًا انّ الله بعد غفرانه الخطيئة لم يترك العقاب الذي استوجبتهُ. فالوفاء اذن عن الخطيئة المغفورة قسمٌ من التوبة ولذلك يقول الكتاب المقدّس (ابن سيراخ ٥: ٥): «لا تكن بلا خوف من قبل الخطيئة المغفورة» فيريد ان نتقدّم عنها ما نستطيع من التعويض والتكفير

٣ قد اقام الله حتى في العهد القديم كهنوتاً فوّضهُ باعلان غفرانه للخطأة على شروط معلومة فكان بنو اسرائيل يأتون كهنتهم فيقدّمون الذبائح لاجلهم ويصلّون عليهم في هيكل الرب وينالون لهم الغفران عمّا فرطت منهم من مخالفة الشريعة وذلك مفصّل في سفر الاحبار

٤ على انّ ذاك الكهنوت الاوّل لم يكن سوى صورة ضعيفة للكهنوت الذي رسمهُ السيّد المسيح وقلّده رسلهُ لاسيما بطرس هامتهم الذي اتّخذهُ صخرةً ليبني عليها كنيسته واعطاهُ مفاتيح ملكوت السماوات وجعلهُ الراعي الاسمى لقطيعه المختار واعطاهُ له ثمّ لاخوته التلاميذ بعدهُ سلطة الحلّ والربط في كنيسته مؤكّداً لهم انّ كل ما يربطونهُ او يحلّونهُ على الارض يكون مربوطاً او محلولاً في السماء. فتمنح الغفرانات داخلٌ بلا شك في هذه النعم التي نالها القديس بطرس ثمّ الرسل اخوتهُ خير مرؤوسيهم المؤمنين

فمن هذه المقدّمات يتّضح ان الغفران يعود الى الله سبحانهُ تعالى والى السيّد المسيح الذي أُعطيَ كلّ سلطان في السماء والارض

على انّ هذا الغفران الذي تمنحهُ الكنيسة للتائبين ليس هو مبنيًا على مجرّد كلام

الله دون تعويض آخر يقوم مقام تعويض التائبين فينوب عنهم . وذلك ما يُدعى بكنز الكنيسة الروحي . فانّ الكنيسة بما انها عروس السيد المسيح السرّية قد اختارها كما يقول الرسول (افس ٥ : ٢٥—٢٧) واحبّها وبذل نفسهُ دونها ليقدّسها ويهدّيها لنفسهِ كنيسةً مجيدة لا كدَر فيها ولا غَضَن بل تكون مقدّسة منزّهة من كلّ عيب . ثمّ سلّمها كلّ استحقاقات حياتهِ وموتهِ وقيامتهِ غير المتناهية لتخصّصها لحاجات ابنائها . وكما ورثت نعم السيد المسيح اضافت الى هذا الكنز الثمين استحقاقات كل ابنائها الذين نشأوا فيها من العذراء مريم والرسل والشهداء والمعترفين والعذارى فانها بموجب شركة كلّ جماعة المؤمنين ابناء الله الذين يتألف منهم جسمها السرّي تستفيد هي من اعمالهم الصالحة واستحقاقاتهم الوافرة كما يستفيد كل عضو من اعضاء الجسد من صحّتهِ وقوّتهِ فتسدّ بها حاجات اولادها الذين لم يَفُوا عن ديونهم للعدل الالهي وتنال لهم من مراحمهِ تعالى ان يقبل قسماً من تلك التعويضات ويغفر للمذنبين ما استوجبوهُ من العقاب عن خطيئتهم بعد غفران ذنبها

٣ تاريخ الغفران في الكنيسة

عرفتَ ما هو اساس الغفران . فلننظر الآن كيف تصرّفت بهِ الكنيسة منذ اول نشأتها

قد جاء في رسالة القديس بولس الاولى الى اهل كورنتس (٥ : ٢ — ٥) شاهدٌ جليل على الغفران فان هذا الرسول كان حرم من جسم الكنيسة واسرارها رجلًا خاطئاً بسبب سقوطهِ في الزنى « فاسلمهُ الى الشيطان لهلاك الجسد ليخلص بالروح ». ثمّ شفع بهِ مواطنوهُ الى الرسول فمنحهُ الغفران وسامحهُ بالحرم بعد ان كان تاب عن خطيئتهِ قال القديس (٢ كور ٢ : ٦—١٠) . يكفي هذا الانسان ذلك التوبيخ . فمن سامحتموهُ بشيء فانا ايضاً اسامحهُ لاني ان كنت مسامحاً بشيء فانّما انا مسامح بهِ من اجلكم في شخص المسيح » فدلّ بولس الى المسامحة وذلك كنائب السيد المسيح . وكذا تفعل الكنيسة بغفرانها الذي تمنحهُ التائب وتخفّف ما استحقّ من التأديبات بسبب خطيئتهِ ولو نال الحلّة عنها

وهنا ينبغي ان نذكر شيئاً من العادات الجارية في قرون الكنيسة الاولى بالنسبة

الى التائبين فان قوانينها كانت غاية في الشدّة لتزجر الخطأة وتكفّهم عن اقتراف المآثم لاسيما الخطايا الثقيلة كالتجديف والسرقة والزنى فكان رؤساء الكنيسة يفرزون مثل هؤلاء المجرمين عن شركة المؤمنين فلا يُسمَح لهم بمشاركتهم في الاسرار فتفرض عليهم اصواماً طويلة ولبس المسوح والوقوف على باب الكنائس وفرائض شتى يمارسونها مدّة سنوات عديدة كانت تدوم احياناً الى آخر الحياة. وبعض هذه القوانين الصارمة كانت تُطلق حتى على اجتراح خطايا خفيفة. فانّ في مكتبتنا الشرقيّة نسخة عربيّة قديمة من كتاب الطبّ الروحاني ليخائيل الجميل اسقف مليج في الصعيد من كتبة القرن الثالث عشر هو «مجموع من قوانين الرسل القديسين والآباء الروحيين وممّن اتى بعدهم من المعلّمين» في ٤٧ باباً دُوّنت فيه التأديبات الكنسيّة التي تُفرَض على المقترفين ببعض خطاياهم دونك مثالاً منها :

(القاتل) الطالب التوبة يُطرح عليه اثنتا عشرة سنة لا يتقرّب ويُفرَز ويقف خارج الكنيسة ويعمل كل يوم مائة مطانية(١ . ويا رب ارحم مئة مرة . ويا الله سامحني انا الخاطئ واغفر لي مائة مرة

(الذي يحلف) عليه سنة لا يتقرّب وفي كل يوم مائة مطانيّة

(الذي يجحد المسيح وينكر المعمودية ذات الخلاص) فعليه ان يبكي طول ايّام حياته

(السارق) عليه وصيّة ثلث سنين ويعمل كل يوم خمسين مطانيّة ويقف خلف الشعب

(الذي يبغض اخاهُ) يبتعد من القربان المقدّس ثلاث سنين على ما سنّتهُ الآباء . واما نحن في زماننا (اي في القرن الثالث عشر) يبقى سنةً ويأكل باباً ويعمل كل يوم مائة مطانيّة

(الكثير الكلام) امرت قوانين الاجات ان يمنع من القربان ستّة اشهر . اما نحن في زماننا هذا يبقى ثلثة اشهر ويأكل باباً في الساعة السادسة وفي كل يوم ١٢٠ مطانية

(المكذّاب) قد سنّ الاجات عليه ان يبقى ثلثة شهور تائباً باكياً . واما نحن فنجعلهُ اربعين يوماً يأكل باباً في الساعة السادسة وفي كل يوم ١٥٠ مطانيّة

ولم تكن العقوبات في الكنيسة الغربيّة اخفّ منها في الكنيسة الشرقيّة . فانّ من التجأ الى السَّحَرة كان يفرض عليه مدّة خمس سنوات اعمال توبة شاقّة — كان المجدّف على الله او على قدّيسيه يوقف مدّة سبعة آحاد على باب الكنيسة وفي آخرها كان يقوم حافي القدمين وفي عنقه الحبل ويصوم سبع جمعات على الخبز الحاف ويُقيت

(١) المطانية لفظة يونانيّة معناها التوبة ويراد بها السَّجْدة والركعة

ثلثة من الفقراء. ومَنْ أبى الخضوع كان يُمنع عن الدخول الى الكنيسة وعند موته يُحرم من الدفن المسيحي — كان الولد الذي يلعن والديه يُحكم عليه بالصوم على الخبز الحاف مدّة اربعين يوماً. وقس على هذا بقيّة الخطايا. وهذه التأديبات وُضعت لخطيئة واحدة فان تعدّدت الخطايا اصبحت حياة الانسان قصيرة عن وفاء تلك القوانين حتى ولو عمّر الخاطئ العمر الطويل

وكان التائبون لا يعودون الى مرتبتهم في الكنيسة الّا بعد ان يقطعوا اربعة اشواط: شوط «الباكين» كانوا يقومون في رواق الكنيسة لابسين المسح والرماد على رؤوسهم يلتمسون الغفران من الداخلين. وشوط «السامعين» كانوا يقومون في اسفل الكنيسة مع الطالبين ولا يحضرون الّا الوعظ ومقدّمات الاسرار الى الانجيل. وشوط «الساجدين» كانوا يحضرون الاسرار وهم منكبّون على وجوههم ساجدين ويتلو عليهم الاسقف صلوات معلومة. وشوط «الواقفين» الذين كانوا يقفون مع المؤمنين ويحضرون معهم الاسرار الّا انهم كانوا يُحرَمون من التقدمة ومن تناول القربان

وعلى هذا المنوال اصبحت التأديبات الكنسيّة عبئاً ثقيلاً لا يطيقهُ عموم الناس. ولمّا كانت الكنيسة امّاً حنوناً لا تريد هلاك اولادها وانّما تبتغي اصلاح سلوكهم وتوبتهم النصوح والتكفير عن ذنوبهم فلذلك توسّلت ببعض الوسائل لترخي خناق اولئك التائبين ولا تلقيهم في اليأس والقنوط

فمن ذلك ان رؤساء الكنيسة كانوا اذا لحظوا في التائبين ندامةً عظيمة وغيرةً في وفاء القانون واصلاحاً تامّاً لسلوكهم تساهلوا معهم وغفروا لهم قسماً من تلك العقوبات الصارمة

ومن الوسائل التي شاعت في ايّام الاضطهادات أنّ التائبين لاسيما الذين كانوا جحدوا الايمان امام الحكّام خوفاً من العذابات كانوا يلتجئون الى الشهداء الذين قاسوا الآلام بثبات لاجل ايمانهم وحُكم عليهم بالموت او بالسجن لاجل المسيح فيطلبون شفاعتهم لدى الرؤساء ليتجاوزوا عن تأديبهم ويعاملوهم بالرفق. فكان ارباب الكنيسة لاجل كرامة الشهداء يصفحون عن التائبين او يخفّفون عليهم التأديبات

وكذلك المحسنون الى الكنيسة الذين كانوا اصابوا كرامةً لدى اربابها كانوا يتوسلون الى الاساقفة ليغضُّوا النظر عن بعض المجرمين فيقبلوهم في الكنيسة بالحلم والرحمة ضاربين صفحاً عن تأديبهم او مكتفين بالزهيد القليل

٤ الغفران بالنسبة الى الآخرة

انَّ التأديبات التي تفرضها الكنيسة على ابنائها التائبين من شأنها ان تقرّب اليهم الوفاء عمّا استحقُّوهُ من العقاب الزمني لعدل الله وبالغفران تخفف عن عاتقهم ذلك العقاب

ولكن يا تُرى أَلهذا الغفران فعلٌ في الآخرة؟ أيمكن الكنيسة ان تلطّف ما استحقَّهُ الانسان من العقاب في المطهر لِما لم يفِ بهِ في هذه الحياة لعدلهِ تعالى ؟ انَّ بعض المراطقة نكروا مفعول غفرانات الكنيسة في تلطيف تلك الآلام لنكرانهم وجود المطهر . فنُحيل هؤلاء المبتدعين الى مقالة العدد السابق التي اثبت فيها الطيّب الذكر البطريرك ميخائيل جزوه حقيقة وجود المطهر عقلاً ونقلاً

فبافتراضنا وجود المطهر لا بُدَّ من القول انَّ سلطان الكنيسة برضها الغفران يمتدُّ الى عذابات الآخرة ايضاً وذلك لاسباب :

اوّلاً : انَّ هؤلاء المطهَّرين في حبس المطهر لا يزالون من عداد ابنائها ومن جسمها السرّي المتألف من ثلثة فروع اي الكنيسة المجاهدة على الارض والكنيسة الظافرة في السماء . والكنيسة المتألمة في المطهر فلا تستطيع الكنيستان الظافرة والمجاهدة ان تغضّا الطرف عن اخوتها المتألمين في المطهر

ثانياً : لان الكنيسة المجاهدة هي عروس السيد المسيح السرّية كما سبق فلا يستطيع ان يردَّ لها طلباً لمن ولدتهم لله بالمعموديّة وقدَّستهم باسرارها وطبعت في نفسهم بالعناء والجهد صورة قرينها الالهي

ثالثاً : لأنَّ السيد المسيح خوَّلها اسراراً عظيمة وجعل في يدها كنوز استحقاقات حياتهِ وآلامهِ لتخصّصها بمنفعة الاحياء والاموات

رابعاً : ويدلُّ على ذلك انَّ الكنيسة في كلّ اطوار تاريخها وفي كلّ البلاد التي بسطت فيها سلطانها لم تزل تقدّم الصلوات والاصوام والذبائح المقدَّسة وضروب

التعويضات عن المؤمنين المتنيحين بالربّ بشركة كنيسته الواحدة الجامعة المقدّسة . لنا في اثبات هذه الحقيقة الشواهد الكتابيّة المدوّنة في ديامس رومية منذ القرون الاولى وقد نقل كثيرًا منها في المشرق (٢١ [١٩٢٣] : ٨٠١–٨١٢) حضرة القس جرجس اليان في مقالته عن احوال الآخرة في عرف النصارى الاوّلين . فهناك عدّة ادعية عن لسان المرتى يلتمسون بها من اخوتهم الاحياء ان يذكروهم لدى الله وينالوا لهم الراحة الابديّة من رحمته تعالى . وكذلك في تاليف الآباء القديسين ادلّة واضحة تصدعُ بهذه الحقيقة (راجع مقالة البطريرك جروه المذكورة)

على انّنا لا نشبّه شبهًا تامًّا مفعول غفرانات الكنيسة في اولادها الاحياء بمفعولها في ابنائها الراقدين بالربّ . فانّ سلطان الكنيسة على مؤمنيها في هذه الحياة صريحٌ يدركهم تولًا لما أُعطيت بشخص هامة الرسل فانّها قُلّدت مفاتيح ملكوت السماوات وان ما تحلّهُ او تربطهُ على الارض يكون محلولًا او مربوطًا في السماء . امّا سلطانها على مَن فارقوا هذه الحياة بنعمة الله دون الوفاء التامّ عن خطاياهم الثقيلة المغفورة او عن خطاياهم العرضيّة غير المغفورة فانّهُ سلطانٌ ضمنيّ يتوقّف على شفاعتها المقبولة لدى الله المصحوبة بما لديها من كنوز استحقاقات السيد المسيح والقديسين غير المتناهية ولاسيما بتقدمتها ذبيحة جسد ودم ابن الله في القربان الاقدس

وفي كلا الحالين سلطان الكنيسة كلّهُ من الله لا من ذات نفسها بواسطة ابنهِ الالهيّ الذي قال لتلاميذهِ قبل صعودهِ (متى ٢٨ : ١٨) : «اني قد أُعطيتُ كل سلطان في السماء والارض» (يوحنا ٢٠ : ٢١) : «كما أرسلني الآب انا أُرسلكم ... خذوا الروح القدس مَن غفرتم لهم خطاياهم تُغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تُمسك لهم» فان كان سلطان الكنيسة يمتدُّ الى غفران الخطايا فكيف لا يمتدُّ ايضًا الى غفران عقاب الخطايا الذي هو اخفّ من غفران الخطايا نفسها

٥ تطوّر الغفرانات بتمادي الزمان

رأيتم كانت شديدة في قرون الكنيسة الاولى التأديبات الكنسية المفروضة على التائبين . الّا انّ احوال العالم تغيّرت كثيرًا بعد سقوط الدولة الرومانيّة وهجوم الشعوب البربرية على اوربّة حتى ان سياسة العالم انقلبت ظهرًا لبطن فوجب على

الكنيسة ان ترتي تلك الامم المستحدثة وتزيل همجيتها وتنفخ فيها روحاً جديدة . ومما لطفت العقوبات القانونية التي كانت تلزم بها التائبين لئلا ينبذوا الايمان ويعودوا الى وثنيتهم فجعلت تفرض على طالبي التوبة قوانين لا يتفرون من مباشرتها كالصلوات والاصوام والصدقات الى الفقراء بدلاً من ذرّ الرماد ولبس المسوح والوقوف على باب الكنيسة ومنع القربان

وفي القرون الوسطى رسمت كفّارةً عن الذنوب اعمالاً تقويّة كزيارة الاراضي المقدّسة وكنائس رومية وبعض المزارات . وكجلد الجسد بالمقارع او كدفع شيء من الدراهم لبناء الكنائس

ولما أعلن بالحروب الصليبيّة منحت الكنيسة الغفران عن عقاب الخطايا الذين كانوا يتجنّدون في جيوش الصليبيين لفتح الاراضي المقدسة . والكنيسة بكل ذلك ترغب بأن تخفف عن ابنائها تبعة خطاياهم فيعرضوا عنها

ثم جاءت اليوبيلات في غرّة القرن الرابع عشر كلّ مئة ثمّ كلّ خمسين ثمّ كلّ خمس وعشرين سنة فاخذ الالوف ومئات الالوف من المسيحيين يتقاطرون الى زيارة ضريح الرسولين بطرس وبولس في رومية فكانت وسيلةً جديدة لربح الغفرانات الممنوحة من الاحبار الرومانيين لزوّار عاصمة الكثلكة كما انّهم منحوها ايضاً لزوّار كنائس اخرى شهيرة بذخائر القديسين وآثار العبادة مثل كنيسة الرسول القديس يعقوب في كمبستال من اعمال اسبانية

وهكذا الكنيسة كانت تتصرّف بانواع التعويضات وطُرُق التكفير عن الذنوب وانّما جوهر هذه الانعامات لم يختلف فانّ الكنيسة بناء على سلطتها الالهيّة تسامح عن ما تستحقّهُ الخطيئة المغفورة في سرّ التوبة من العقوبات الزمنيّة بايجاد ممارسات اخرى تقويّة تقوم مقامها اخفّ عبئاً واسهل وفاء

وهذا ما حملها على اختيار عبادات شتى وضعها بعض القديسين فأغنتها بالغفرانات ليسهل على المؤمنين ربحها بممارستها كعبادة الورديّة وعبادة درب الصليب والسجود القربانيّ والاخويّات والشركات التقويّة وتلاوة صلوات مختلفة علّقت عليها مثل هذه الغفرانات لتتوفّر لدى المؤمنين وسائط النجاة من العقوبات التي تستحقّها خطاياهم في العالمين

٦ من هو المفوَّض اليهِ منح الغفرانات

لمَّا كان الاحبار الرومانيُّون هم خلفاء القديس بطرس خادمة الرسل ونوَّاب السيد المسيح على الارض اليهم قد أُعطي قبل الجميع السلطان على منح الغفرانات. وهذا السلطان يُعرَف بسلطان المفاتيح الرسوليَّة اشارةً الى قول الرب للصفاة « سأُعطيك مفاتيح ملكوت السماوات » وقد نال الرسل ايضاً هذا السلطان لان الرب جعلهم « وكلاء اسرار الله » (١ كور٤: ١). فيستطيع الاساقفة ورؤساء الكنائس ان يمنحوا ايضاً الغفرانات

على انَّ هذا السلطان مقيَّد تحت حكم امام الاحبار الذي لديهِ مستودَع كنوز الكنيسة فيستطيع ان يطلقهُ او يحصرهُ كما يشاء. ومن الحقّ العمومي المعروف انَّ لرئيس الكنيسة الاسمى ان يمنح الغفرانات بكل أصنافها ولاي غايةٍ شاء سواء كان لفائدة الاحياء او لاسعاف الموتى. ثمَّ للكرادلة والبطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة والنوَّاب الرسوليين والقضاد الرسولين حقّ بمنح بعض غفرانات جزئيَّة للأحياء فقط في ابرشيَّاتهم وكلّ الامكنة الخاضعة لهم او في الحفلات الدينيَّة التي يرئسونها خارجاً لحضور تلك الحفلات. امَّا المجامع فان كانت مسكونيَّة فلها ان تمنح الغفرانات باشتراكها مع الحبر الاعظم ليس خلواً منهُ. وان كانت مكانيَّة خصوصيَّة فلا سلطة لها على ذلك. انَّما الغفرانات التي يمنحها الرؤساء لا تبطل بموتهم

٧ انواع الغفرانات

تقسم الغفرانات الى غفرانات كاملة وجزئية. فالكاملة هي التي توفي عن سائر التأديبات والعقوبات الزمنيَّة التي استحقَّها الانسان لاجل خطاياه بعد توبته سواء كان في هذه الحياة ام في الآخرة. الَّا انَّ هذه الغفرانات لا يربحها بكمالها الَّا القليلون لعدم استيفاء الكثيرين لشروطها تماماً. والجزئيَّة هي التي تُزيل جزءاً من هذه العقوبات. وانَّما يجب التنبيه على انَّ هذه الغفرانات الجزئيَّة كغفران اربعين يوماً مثلاً معناها اوَّلاً انَّها تعافي الخاطئ عن عقاب قانوني كان مفروضاً عليهِ سابقاً مدَّة اربعين يوماً بازاء الكنيسة

امّا في العالم الآخر ففعولها مؤكّد بيد انّهُ غير محدّد وانّما هو موكول الى رحمة الله

وتُقسم ايضاً الغفرانات الى غفرانات شخصيّة او مكانيّة او وضعيّة فالشخصيّة تمنح لشخص معلوم او لجماعة معلومة لا يربحها غيرهم . والمكانيّة تنوط بمكان مقدّس مثلاً ببعض الكنائس او المزارات التقويّة . امّا الوضعيّة فتمنح لبعض الموادّ المتنقلة كايقونة مقدّسة او صليب او ذخيرة او سُبحة وما شاكل ذلك

ويقسمون الغفرانات ايضاً الى غفرانات الاحياء التي يربحها المؤمنون لنفسهم وغفرانات الموتى التي يمكن تخصيصها لنجاة النفوس المطهريّة بموجب ما يقرّره مانح تلك الغفرانات

وكلّ هذه الغفرانات كانت تُعلَن في منشورات رسميّة يبرزها في رومية مجمع خاصّ باسم الحبر الروماني ويجدّدها من وقت الى آخر ليستدلّ المؤمنون على صحيحها من باطلها . امّا اليوم فهي منوطة بالمجمع المتقلّد امور التوبة (Pénitencerie) وتُعلَن بنشرة الكرسي الرسولي الرسميّة (Acta Apostolicæ Sedis)

٨ الشروط لربح الغفرانات

لا تُمنَح الغفرانات عفواً دون شروط يُقيَّد بها ربحُها وهذه اخصّها :

الشرط (الاوّل) ان يكون الانسان حيّاً مصبوغاً بماء المعموديّة خاضعاً للكنيسة غير مربوط بجرم من رؤسائها

الشرط (الثاني) ان يكون طالب الغفران في حالة النعمة المبرّرة . لان الغفران كما سبق لا يغفر ذنب الخطيئة وانّما يغفر ما استوجبتهُ من العقاب الزمني . وامّا غفران الخطيئة فهو يتمّ بسرّ التوبة وحلّة الكاهن

الشرط (الثالث) ان يعقد النيّة على ربح الغفران على الاقلّ ان تكون لهُ نيّة ضمنيّة عموميّة ان لم تكن حاليّة او صريحة

الشرط (الرابع) ان يتمّم طالب الغفران بذاته الواجبات المفروضة لربحها من صوم او صلاة او زيارة او صدقة . فان خلّ من ذلك شيء امتنع الغفران ما لم يكن موجب لاستبدال شيء من تلك الشروط . واغلب ما يُفرَض على المؤمنين ليتمّموا

بالغفرانات الكاملة ان يرحضوا نفوسهم بسرّ الاعتراف ويعقبوهُ بتناول القربان الاقدس

٩ مفاعيل الغفرانات الصلاحيَّة

انَّ الشروط السابق ذكرها تبيّن بياناً جلياً ما ينجم عن الغفرانات من المفاعيل الخلاصيَّة. نعمْ انَّ غايتها الاولى ان تعافي المؤمنين ممَّا وجب على خطيئتهم من القصاص لاجل تبعتها السيئة بعد غفران الذنب . الَّا انَّ هذا المفعول المرغوب تصحبهُ مفاعيل اخرى طيبة من شأنها ان ترقّي الحياة الصالحة وتعدّ الانسان الى الكمال المسيحي

فمن مفاعيلها انَّها توجب على المؤمن ان ينزع عن نفسهِ دنس الخطيئة بالتوبة الصادقة وتناول القربان ليكون اهلاً لنعمة الغفران

ومنها انَّها تنعش في قلب الانسان روح العبادة والتقى فتبعثهُ الى ممارسة الاعمال المبرورة والفضائل الالهيَّة

ومنها ايضاً انَّها بما يُفرض على المؤمن من صلوات او صدقات او فرائض غيرها تعوّدهُ على التجرُّد من الارضيَّات وطلب الخيرات السماويَّة وتمجيد الله واسعاف القريب فتنمو في قلبهِ حياة الله . وهذا يلوح خصوصاً في ربح الغفرانات الكاملة التي لا تُنال الَّا بقطع كلّ علاقة مع الخطيئة وممارسة اسمى الفضائل وارضاها لدى الله لاسيَّما المحبَّة «التي هي رباط الكمال» (كولوسي ٣: ١٤)

١٠ الجواب على بعض اعتراضات لنفي الغفرانات

اعترض اعداء الكنيسة عليها فنكروا شرعيَّة استعمالها فمن ذلك قولهم (اولاً) انَّ التوبة كافية للخاطئ فلا يحتاج الى سواها . فالجواب على هذا الاعتراض قد سبق بما اثبتناهُ من الفرق بين ذنب الخطيئة الذي يُمحى بسرّ التوبة وتبعة الخطيئة اي العقاب الزمني الذي يبقى على الخاطئ فتسامح بهِ الكنيسة بالغفران

يقولون (ثانياً) انَّ الموتى قد خرجوا من حكم الكنيسة فكيف تمنحهم الغفران . الجواب انَّ الكنيسة وان بطَلَ بالموت حكمُها على الموتى الَّا انَّها تعتبر المتنيحين كأبنائها وكقسم من جسدها السرّي فايّ مانع يصدّها من تقدمة استحقاقات آلام

وموت السيد المسيح غير المتناهية واستحقاقات العذراء مريم وجميع ابنائها القديسين للديّان العادل وهو رأسها السري ليشمل برحمته تلك النفوس المتألمة أفيمكنهُ ان يردّ طلبتها او يخيّب شفاعتها وهي عزيزتهُ التي وعدها بشخص رسله انها مهما طلبتهُ بالدعاء تنالهُ ؟

ومن اعتراضاتهم (ثالثاً) ان الغفرانات من شأنها ان تثبط الناس على فعل الخطيئة بسهولة منحها للخاطئ التائب. الجواب اننا لا ننكر انَّ الغفرانات تخفف عن عاتق الخاطئ لكنَّ التقيدات المتوطة بها هي على خلاف ذلك من الدواعي الفاعلة الى اصلاح سيرته

يقولون (رابعاً) انَّ الغفرانات تجارة سافلة لربح مال الناس اذ عُرضت للبيع كالسلع. الجواب على انَّ الاحبار الرومانيين في بعض ضيقات الكنيسة ولغايات شريفة منحوها بشرط ان يتصدّق المؤمنون بصدقة اختياريَّة لتحقيق تلك الغايات. منها بنيان كنيسة مار بطرس في رومية ومنها القيام ببعض مشروعات خيريَّة كانشاء مياتم ومستشفيات وتهذيب الناشئة. وليس في ذلك اثرُ تجارة. وان وقع شيء من هذا القبيل فهو على خلاف نيَّات رؤساء الكنيسة وبسبب بعض المطامع الخاصَّة التي لا يترتَّب عليها قانون ويمجُّها ذوق الصالحين وينكرها كل صاحب ضمير

يقولون (خامساً) انَّ بين الغفرانات اربعينيَّات وسبعينيَّات وستين. وكل هذا من الاختراعات الغريبة التي لا سند لها. الجواب على هذا في تعريف عادات الكنيسة الاولى التي كانت تفرض على التائبين قوانين منها اربعينيات الصوم ومنها سنوات محدَّدة وغير ذلك ممَّا أشرنا اليه. فحفظت الكنيسة الحاليَّة هذه النظامات القديمة بمنحها الغفرانات. ولا بأس في ذلك

وخلاصة القول ان الغفرانات مقدَّسة صالحة لا غبار عليها في مصدرها وشيوعها يُثبت الوحي والتاريخ قانونيَّتها وحسن مفاعيلها لا يحاول اعداء الكنيسة تزييفها الَّا زوراً مستندين الى حجج باطلة وما على المؤمنين الَّا ان يستمينوا بها لتقديس نفوسهم وخلاص نفوس اخوتهم من عذابات الآخرة ولاسيما الغفران اليوبيلي وهو اعظمها (اطلب مقالتنا في اليوبيل وغفرانه (في المشرق ٤ [١٩٠١]: ١٧٩—١٨٨)